مقدمة

الحمد للـــه الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، واختار واصطفى، وقرب واجتبى، وطهر وزكى، وألهم وصفى، غاب بذاته، وظهر لنا بكمالاته، واحتجب عنا بحقيقته وبدا لنا بصفاته، إن حاولت العقول أن ترد حياض ذاته احترقت، أو أن تتصوره محقت، ذاته حرم آمن لا يرده قاص ولا دان، ونوره كسفت تحت شعاعاته الشموس، وتشوقت إلى بريقه جلي النفوس، حامت حول الحرم فعادت، وحاولت الطواف حول الكعبة المقدسة فمنعت، وتشوقت القلوب إلى قرب الحقيقة الذاتية فحرمت، ولما أصلاها البعاد تنادت، مزقني النوى، وحرقني الجوى، وهيمني الهوى، فهل لنا إليك من هدى، وعندما سمعت الندا، أما ذاتي فلا، لا تدركني حدق العيون، ولا مسافات بين الجفون، المسافات إلي متناهية، وأنا هناك وراء الحدود والمساحات.

يا من تحيا في البدايات، وتجري إلى النهايات، وتسبح بين موجات وموجات، وتنتقل من آيات لآيات، أنت أسير الدلالات، ومغلول بالشواهد والعلامات، اقطع القيد، وفك الأسر، وحطم الأغلال، وتجرد من الأثواب الكثيفة، عليك جلود ثقيلة فخففها، وفي باطنك ظلمات عميقة فبددها، غذ السير، واجهد الخطأ، قد تكون بلا قافلة، وقد لا تجد حولك أحدا، لا تيأس واحكم زمام الناقة فإنها شرود، ولا تطو الحبل على الغارب فتضل الطريق، لا تدعها بلا حاد فإن السبل متفرقة وهي ما تعودت المسير، حاول ألا يجمح بك فرسك، أو تجنح بك سفينتك.

كم من أناس تشوقوا فساروا يركبون براق الشوق بلا جبريل، ولا محمد ولا صديق، ولا حذيفة فدقت أعناقهم على بدايات الطريق وتاهوا وظنوا التيه هدى، وحلموا وظنوا الأحلام رؤى، واستدرجوا وظنوه تقى.

إن كنت تسير فكن مع الجماعة ولو كنت فردا، وكن حرا من غيره ما دمت عبدا، وتخير لك في الطريق مرشدا، نبيا أو داعيا أو هاديا، وتعلم قبل السير كيفية المسير، وإن كنت تسبح فتعلم السباحة من سباح، ما دمت لم تولد سباحا، ولم تهدهدك رياح القدرة على سفح الحطيم قرب البيت العتيق، ولم تسر بخطاك ساعيا بين الصفا والمروة، ولم تسق من حياض زمزم الممنوحة، إن لم تكن كذلك فلا تغرق وأنت وحدك تحاول السباحة وعد إلى الشاطئ، أسأل الجالسين هناك من يكون؟ وقد يصمتون في البداية، دعهم واسال جلوسا غيرهم، وكرر السؤال وألح في الطلب حتى تظفر بواحد بين المطمئنين سينظر إليك، وستستريح.

سلم يدك لـــه، وافتح الدفتر ليكتب لك فيه، ستكون بلا قلم ولا دواة ولا صفحة، سيوجهك لتكتب بلا قلم ولا محبرة سوداء، ستنقش الكتابة على الصفحة البيضاء، أما السوداء فلا تتحمل النقش ولا تصلح، احرقها من جديد، أدخلها في كيرها المحمي حتى تعود بعد نار المجاهدة بيضاء يطبع عليها نقش ريشة القدر، وتخط عليها دلائل اليقين بلا أسباب ولا علامات.

الماء عذب، والبئر عميق وحبل الدلو ممدود، حاول أن تغرف، واشرب لكي تعرف وإن جاءك الماء صفوا عفوا فاحمد واشكر فقد استرحت، وإلا فالجمرة موقدة، والحفرة مشتعلة، اكو الأعضاء السقيمة كي تبقى بالسليمة، كم من أناس احتجموا وكانوا أهل فضل، وسهروا وكانوا أرباب وصل، وبكوا وهم من أهل السرور، وجاعوا وقد غذوا، وصمتت ألسنتهم وهم في داخلهم ينطقون.

لا تظن مهما وصلت أني بما هو أني عندك، أنا بعيد عنك من تلك الجهة أنا لا آتيك من كوة ولا من باب، ولا نافذة، أنا لا أدخل إليك أنا في ذاتك، أنا في سرك، أنا في ذاتك بسرنا وفي سرك بغيبنا، وفيك بفعلنا، وحولك بآياتنا، وفوقك بقهرنا وأمامك بأخبارنا، وخلفك بسوقنا، وعن يمينك بتوفيقنا، وعن شمالك

بتحذيرنا، وفي بدايتك بتكويننا، وفي نهايتك برحمتنا إن كنت منا وإلا فلا تغضب أنت المخطئ أنت الذي لم ترض بنا و لم تسمع لنا، هلا وعيت؟

فأي الطرق تسلك ستجدني أنا لا أفارقك، وأي البحار تعبر أنا معك وأي الأجواء تعرج أنا أعلى منك بلا مسافة، وأرقى منك بلا جهة وفوقك بلا تعيين، سر وتعال، واسبح من شاطئ إلى شاطئ لن تجدني هناك على الشاطئ الثاني، أنا لست أولا وثانيا تلك أعداد وأنا ربها، تلك المخلوقات وأنا خالقها، لكن إن أردت بالشاطئ الأول نفسك في ظلمتها وبالثاني قلبك في صفائه فستجدني عند حسن ظنك بي، وإن أردت بالشاطئ الأول بداية سيرك، وبالثاني قلبك شاطئ الوصول إلي فلن أكون في استقبالك إلا بموائدي وحفاوتي وعطائي أما أنا فبعيد عن استقبال العبيد بذاتي وهم مساكين لا يطيقون ذلك.

فتعال إلى ضيافتي في بيتي وخلوتك، وذكري وجلوتك، وعبادتي وصلاتي، وطاعتي وسجودك، وكلامي وترتيلك، وأمري وتنفيذك، وتقاي وخوفك، وقربي وخضوعك، وحبي ومذلتك، ونبيي واتباعك، وصل أنت كما صليت أنا، وسلم عليه كما سلمت، إني أنا الذي ابتدأت، فاستجب وردد ورائي واستمع إلى أمري، وإياك أن تكون بخيلا عليه بالصلاة والتسليم، أو بالاتباع والاقتدار، لن أقبلك، محوت كل طريق غير طريقه، تعال إلي منه وأسلك إلى على هديه، وقدم بين يدي نجواك صدقة، ألا تعلم أنه حبيب دونه جميع الأحبة وأنه خليل دونه جميع الخلان، وأنه محمود دونه كل ذي فضيلة، ألا تعلم أنه الأول عندي منـــزلة وإسلاما وإيمانا والأول عندي مكانة ورتبة وعلوا وجاها وسلطانا.

هو من اخترته فأدبته واصطفيته وأدنيته ورفعته، فإن كنت تريد أن تكون معه هنا عندي في مقام قاب قوسين فتعال وراءه لا تنأ عنه وأكثر من الصلاة والتسليم عليه، فصلى اللـــه عليك سيدي وحبيبي ورسولي صلاة تليق بذاتك

وبجمالك وكمالك وعلمك وخلقك ونفسك وروحك وقدرك ومنـــزلتك صلاة لتكون لي برهانا ووصلا، وشفاعة وفوزا، ونجاة وأمنا.

وبعد

فإن هذه الدراسة هي جماع لشتات أقوال الصوفية في التربية السلوكية تلك التربية التي تعددت وسائلها ومناهجها وطرقها، وعمقت في حكمتها، وسبقت في خصائصها وأهدافها.

وإنه لكي تتصل حلقات البحث فنا وتتضح لدى القارئ فهما، ولأن الدراسة تمت على مرحلتين زمنيتين لفاصل ثمانية عشر عاما نجد أنفسنا مضطرين إلى توضيح الترتيب حتى يبدو منطقيا من الناحية المنهجية، ومتفقا مع خطة الصوفية في التربية، ومع واقع المريدين الذين يتجهون صوب المشايخ سالكين.

هذا الترتيب يبدأ بمدخل يتحدث عن القيمة الكبرى لموضوع التصوف السني في الإسلام، وصلته ببعض العلوم، ويحدد المنهج الذي سلكه الباحث في دراسته لا المنهج الصوفي العام، فقد سبقته دراسته في كتابنا (التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة) (الجزء الثاني) وبعد المدخل جاء الباب الثاني يكشف عن الدوافع التي حدت بالمسلم عامة لكي يولي وجهه صوب الطريق مبتغيا قطع دروبه. ومجتازا عقباته لتحقيق غايات الوصول.

والحال أن تلك الدوافع انبعثت في الغالب الأعم من داخل صاحبها، وتولدت لديه رغبة في الإقلاع عما هو عليه، وبهذا الانبعاث وبالنية والقصد المصاحبين تشحذ الإرادة فيتوب العبد من ذنوبه ومن غفلاته، ويبحث عن شيخ لكن أي شيخ مرب لن يقبلـــه حتى يصحح عقيدته طبقا لنهج السلف، وحتى يتزود من العلم الشرعي تزودا يفيده في طاعته وعبادته كي تكون موافقة للشرع،

ولقد رد المربي شيخ الإسلام الغزالي عندما أقبل عليه أبو حامد طالبا السير، فقال لـــه هل هذا المربي: ارجع إلى شيخ العلم ثم تعال أعلمك العمل.

فإن صحح عقيدته وحصل قسطا وفيرا من علوم الشريعة تتضح عين الطالب بعد قلبه على شيخ بصير ذي خبرة وعلم وحال فيأوي إلى كنفه ويرتمي في حلقته، وهنا تبدأ مرحلة جديدة من حياة القاصدين مع شيوخهم، ونظرا لأن التربية تعتمد على أستاذ وطلاب، وبدون الأستاذ لا فائدة من تجمع الطلاب، وبدون الطلاب يقتصر نفع الشيخ على ذاته، لذا لزم الحديث عن الطرفين معا: الأستاذ والطلاب.

وقبل الخوض في الصفات التي يجب توافرها في الشيخ يتقدم الباب الثالث ليوضح سبل التلقي عن طريق الجذب أو الاكتساب، والأهداف المنوطة بها، يليه الحديث عن الشيخ وضرورته، وإعداده وواجباته وآدابه وهو موضوع الباب الرابع.

ثم يأتي دور التلميذ أو الطالب، وآدابه مع الشيخ شريطة عدم المبالغة، والباب الخامس هو الموضح لتلك النقاط، وسوف تقتصر الدراسة في هذا الباب على آداب المريد مع الشيخ فحسب أما الأدب بصفة عامة، والآداب الذاتية، والأدب مع الغير أثناء الخدمة أو الصحبة وما يلي ذلك من مراحل السلوك فتتناولها الأبواب التالية بدءا من السادس.

وأود أن أوضح نقطة هامة هي أن الصوفية بعد عثور المريد على الشيخ صنفان:

جماعة يرون أنه لا بأس من أن يقدم المريد مباشرة على العهد مذعنا للشيخ وطريقته، ويقبلـــه المربي عهدا، ويلبسه الخرقة، ولا يمانع أصحاب هذا الاتجاه من أنه لا بأس بذلك فإن صدق في السير كان وإلا فهي توبة في صحيفته، ويأملون أن يؤثر الشيخ بمقالـــه ونصحه، أو بحالـــه وكشفه في استمرار المريد وسلوكه،

وعلى ذلك المربي الفاضل، القطب الواصل الشيخ أبو خليل ساكن الزقازيق.

وهناك من يفضل الانتظار ريثما يمر الطالب بمراحل معينة من الخدمة والصحبة وقوة الإرادة ثم يمد الشيخ يده لمريده مبايعا لـــه على صدق العزيمة والسمع والطاعة، وربما تمتد تلك الفترة التي يستغرقها القاصد حتى يتأهل لقبضة الشيخ وذلك حسب الاستعداد والعزيمة، وقد يحددها البعض بمدة محددة، وفي كل فإن تلك المرحلة التمهيدية التي يفرضها المشايخ على الطالبين يختبر فيها أدب القاصدين، ويتمرس أثناءها على جمل كبيرة من الآداب الذاتية، والآداب ذات الصلة بالآخرين.

ومع أن موضوع الأدب لصيق بالأخلاق، والأخلاق شعبة من الدراسات النفسية التي سوف نسبر غورها عند الصوفية في المستقبل القريب إن شاء اللـــه إلا أننا آثرنا الحديث عن الآداب بتنوعها هنا لقوة ارتباطها ببدايات السلوك، وأن المريد لن يقبل عند المتريثين حتى تختبر صلاحيته في نفسه ومع غيره.

والأدب هو العنصر البارز في تلك المرحلة والدراسة التي تحت أيدينا سلكت مسلك الذين تمهلوا وأخذت بوجهة نظرهم- لا سيما السهروردي لأن هذا المسلك هو ما اتفق مع غالبية الصوفية وما يتطابق مع واقع السلوك عند المريدين ولأنه هو النهج الذي يجعل المريد ينطلق بعد العهد دون عقبات كئود وتبعا لهذا فإن الباب السادس وما بعده من أبواب ستصف وتحلل الخطة الصوفية في التربية فتتناول الآداب بأنواعها، ثم العهد ولبس الخرقة، ثم الالتزام السلوكي بالأوراد، وتلمح خلال ذلك إلى مراحل البدايات والوسط، ثم النهاية التي لا تتوقف عند حد، ولا يفوت البحث أن يشير إلى الوسائط التربوية كالزوايا والربط والخانقاوات، وبذا تكون الدراسة قد استوعبت من وجهة نظرنا عناصر العملية التربوية عند الصوفية كلها.

وأود القول أخيرا بأن الاهتمام بالتربية الإسلامية عامة والصوفية خاصة ضروري في أيامنا لعدة أسباب منها أن للمسلمين تربية تخصهم، وتتسم بالشمول والعموم ودقة النظر فيما تتطلبه العلمية سواء فيما يخص المربي أو التلميذ.

وأيضا فإن في دراسة التربية الإسلامية إظهار للأفكار الخصبة التي حواها تراثنا وغابت عن الكثير، وفي هذا الإظهار تنبيه إلى المتخصصين في هذا المجال أن يلتفتوا إلى التراث مستفيدين، وأن يؤسسوا التربية عندنا على أصول تحفظ لنا هويتنا وثقافتنا وتربط نشأنا بماضيه وتراثه، في الوقت الذي لا بأس معه من الإفادة بنظرات الآخرين شريطة أن تكمل ولا تهدم، وأن تفيد ولا تفسد، وأن تصل ولا تقطع، وأن تحفظ لنا ولأبنائنا صفاء الأصول ولا تعكرها.

والله نسأل أن ينفعنا جميعا وأن يزكي نفوسنا ويتولانا كما تولى عباده الصالحين.

أ.د. عبد الله الشاذلي
رئيس قسم العقيدة والفلسفة
كلية أصول الدين والدعوة طنطا